الدستور

والروح الوطنية

انيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

مما ذكرناه آنفاً يتضح ان ما تدفّق به الشعر الدستوري من عواطف الحبور والتهليل راجع بالاكثر الى ما نشأ في نفوس الثمانين عموماً والعرب خصوصاً من ايمان ثابت باخلاص الدستوريين ورجاء حميّ بحسن المصير. فكنت تراهم على شبه يقين من انهم أصبحوا ابناء لدولة عظيمة تحبّهم وترغب في تقدّمهم

ذلك الايمان وذلك الرجاء بثا في الشرق العربي روحاً جديدة أيقظت القلوب وأضرمت فيها الشعور بالفخر والكرامة الذاتية فألبست الادب حللاً قشيبة من الجمال. وقد ظهر ذلك في مظهرين رئيسيين هما الاعتزاز بالوطنية، والدعوة الى الاتحاد القومي: واليك البيان عما اختبرناه بأنفسنا وعرفناه من اختبار الآخرين

﴿ الاعتزاز بالوطنية ﴾ أشرنا في فصل سابق الى ما كان للحرب الروسية اليابانية ١٩٠٥ من أثر في تخمير الشرق العربي بروح الكرامة الشرقية. وقلنا ان ذلك لم يكن الا سبباً تمهيديًّا لحركة أعمق وأوسع نطاقاً. وقد بدأت هذه الحركة فعلاً عقب اعلان الدستور. وسنرى كيف تطورت مع الزمان. وكيف تغيرت أشكالها في شتى البلدان

ولا يخفى ما كان للاجانب في السلطنة العثمانية من نفوذ سياسي واقتصادي وفكري. فهم أصحاب الامتيازات وفي معاهدهم نشأ سواد المتعلمين، فلا بدع ان يتولد في نفس الشرقيّ ازاءهم ما يسميه علماء النفس بالصغار الذاتي[1]، حتى صار عند الجمهور كل شيء غربي أفضل من كل شيء شرقي، تاجرهم أصدق، وعالمهم أعلم، وصانعهم أحذق، بل وعنصرهم، أشرف وأرقى. وجرى ذلك بين الناس في الشرق العربي وألفوه حتى صار جزءاً من كيانهم النفسي. على ان النهضة العلمية أخذت منذ القرن الماضي تعمل على إضعاف هذا الشعور، فنشأ بين المفكرين من أثار على الصغار

(١) مقابلة للتعبير الانكليزي Inferiority Complex

الذاتي» حرباً شعواء داعياً الناس الى احترام النفس واكرام الوطن. كقول أحدهم[1] «كيف نؤمل نجاح صناعتنا وتأخر صناعتهم في بلادنا حال كون كل عربي يمدح صناعتهم ويطنن في صناعة بلاده، ويفضل ما كان أنر تجيًّا مهما كان». وقد نظر الكاتب هنا الى الوجهة الاقتصادية وهاله ان يرى تأخر الوطني لتأصل فكرة سقيمة فيه. ومنهم من نظر الى الوجهة الاجتماعية او الروحية فآلمه ان يرى ما يسود الناس من اعتقاد بأفضلية الغربي وتفوقه الفطري على الشرقي. فقال[2] «ام لا ترى انك لو نشيت بأس قومك عنايتك بالاجنبي تقوم بأمره، وتولع بشكره، لما لبثت أن ترى منهم من يبلغ شأوه وان كان رفيعاً، ومن يدرك سعيه وإن كان سريعاً»

وعرف الغربيون ذلك الشعور في الشرقيين فاستغلوه بل تمادوا في استغلاله حتى صاروا لا يتورّعون عن التشامخ على بني الشرق وامتهانهم في عقر دارهم. فمن الطبيعي ان يولد ذلك في نفوس الأباة من الشعراء والكتبة «ردّ فعل» يظهر في منظومهم ومنثورهم كما ترى في قصيدة للزهاوي قالها قبل الدستور ومنها[3]

كفى الغربُ فخراً انهُ متقدّم ... وانّ له مالاً به يتمم
وانّ لهُ في البرّ جيشاً عرمرماً ... يمائله في البحر جيش عرمرم
ترقّى فلما اشتدّ ساعدهُ عتا ... وبات بغيظ الشرق والشرق يكظم
يطيل على اجحافه بحقوقه ... سكوتاً كأنّ الشرق ليس له فمُ
فيا أيها الغرب المدلّ بنفسه ... ويدك ما هذا الغرورُ المذمّمُ
أتزعم ان الشرق يلبث صاغراً ... أمامك مقصوباً وأنت المكرّمُ
وتبقى عليه هكذا متسيطراً ... تمصُّ دم الاموال منهُ وتهضمُ

والقصيدة حوالي ثلاثين بيتاً وكلها على هذا النسق من اليرم بهذه الحال وبتحلّلها فخر بالماضي وأمل بالمستقبل. وظلّ الامر كذلك الى اوائل القرن الحالي حين أخذت الحضارة الجديدة تعمّ البلاد وحين توفّر الشرقيون على دراسة العلوم الحرّة، فعرفوا ما لهم وما عليهم. وكبرت نفوسهم فصارت الطبقة المثقفة منهم تشعر بوجودها، فيسؤها ما تراه في الوطن من اثرة أجنبية وتحاول القضاء عليها بشتى الوسائل ولا سيما باحياء الروح الوطنية. على انها كانت تصطدم بالامتيازات الاوربية. ويفتّ في عضدها خنوع الدولة للاجانب وجهل العامة معنى احترام النفس والوطن. وقد زاد الطين بلّةً تلك الثمرات الطائفية وما ولدته من ضغائن ومخاوف، مما فتح الباب لتدخل الاوربيين بحجة حماية الاقليات، وبالتالي لازدياد نفوذهم الروحي والسياسي وشيوعه في جميع انحاء الشرق

(١) سليم البستاني مجالي الفرر (١٩٠٦) ١٠٠
(٢) أديب اسحق على الفرر ١٤٨ (٣) ديوانه (١٩٢٤) ٢٩٣

فلما اعلن الدستور وارتفع الضغط المفني عن الالسن والصدور ، اتقد الشعور الوطني اتقاداً لم يعهد من قبل واخذ الادب العربي يتغنى بالقومية تغنياً غريباً اشتركت فيه جميع العناصر والطوائف . وقلما كانوا يفرقون يومئذٍ بين الكرامة الشرقية والكرامة العثمانية ، بل ذهبوا الى ابعد من ذلك في حماستهم الدستورية فقلبوا للاجانب ظهر المجن ورفعوا الهلال العثماني الى اوج التعظيم

وقد كان شيء من ذلك قبل الدستور ولكنهُ لا يقاس بما وصل اليه بعده والذين ادركوا ذلك العهد لا ينسون قط تلك الهبَّة القومية التي كان لها في نفوس الشبيبة فعل المسكرات فأنَّ لهم حتى نسوا مساوىء العهد السابق ، واطلقوا لاقلامهم وألسنتهم العنان فجرت في هذا المضمار جري السوابق . فلا تستغرب اليوم اذا قرأت لاحد ادباء بيروت المسيحيين الاصلاحيين قوله من خطاب القاهُ في الاسكندرية [1] :—

« ليبتهج العثمانيون فقد نشر الدستور ، وجاء اليوم الذي الَمَّ فيه شعث الامة العثمانية وتآلفت اعضاؤها ، وتآخت اجزاؤها . فكلنا بنعمة الدستور عثمانيون — عثمانيون لا نعرف غير هذا اللقب لقباً ، ولا نتخذ سواه نعتاً . عثمانيون قبل كل شيء . عثمانيون طول الحياة . عثمانيون مذهبنا الحرية وشعارنا الوطنية وفخرنا الراية الهلالية وملجأنا الدولة العلية »

ومثله ما جاء في لسان الحال من الناحية [2] : — قال الكاتب يصف حالتنا الاجتماعية والروحية قبل الدستور ويقابلها بما صارت عليه بعده — « لم يكن حالنا حال المريض فقط . بل لا نجازف اذا قلنا اننا كنا قد بلغنا حال المحتضر . وطال هذا الدور (اي دور الاحتضار) الى ان اتانا الدرياق فنشطنا من عقال الخمول ووثبنا وثبة الاسد من العرين » وبعد ان يصف هذه النهضة يشير الى علاقة الوطنيين بالاجانب فيقول (وهو من المعروفين باعتدال النهج) — « وسيرى الغريب من الفرنجة وغيرهم كيف يعاد مجد الامم وتتجدد حياتها بقوة افراد رجالها »

وقال احد الكتبة المسلمين [3] واصفاً ما كانت تقاسيه الدولة من السياسة الاوربية — « ان الدول كانوا يواصلون الضغط على جسم المملكة العثمانية ويضاعفون السعي لايقاع الشلل في عروقها الكثيرة النشعب . ولكن قضى ربك ان يردَّ كيد اولئك المتسابقين الى نحر هذا الجسم المتضعضع الى نحرهم ، وتعود العثمانية بفضل الدستور قوية الشكيمة تقف في وجوههم وقفة الرئبال لا جزعة ولا فزعة »

وعلى هذا المنوال نسج كثير من المقالات والخطب وكلها تشير الى ما كان يملأ النفوس من

(١) خليل زيلع جريدة الثبات ١ عدد ٦ (٢) عدد ٢٦ (تشرين اول : اكتوبر) ١٩٠٨
(٣) طه المنور في لسان الحال ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٠٩

النقمة على الاجانب او على الاقل من الامل بهوض الدولة فيسترد ابناؤها (الترك والعرب على السواء) مجدهم الغابر ولا يضطرون بعد ان يقفوا امام الاجنبي وقفة الضعيف امام القادر

اما الشعر فحدّث عن انفساحه الوطني ولا حرج . فيه اشتركت جميع الاقطار العربية والمهاجر حتى لبنان فانهُ برغم استقلاله الذاتي وبرغم اتجاهه نحو الغرب علقت به شرارة من ذلك اللهيب فكان من ابنائه في الوطن والمهجر شعراء يهرجون بنظام الانقلاب والاستبشار به ، ويهللون للعرش العثماني وابطال الحرية . ومن اراد الاطلاع على ما قيل في هذا الباب فليرجع الى الصحف العربية في العامين ١٩٠٨ و١٩٠٩ (١)

ومما لا ريب فيه ان الشعر الدستوري في السنتين المذكورتين مفعم بروح التفاؤل شديد الحماسة للكرامة الشرقية والجامعة العثمانية . سواء في ذلك المسيحيّ والمسلم ، القائم على سياسة عبد الحميد او غير القائم . ومن امثلته هذان البيتان لسعيد شقير من قصيدته المار ذكرها —

لا زلتَ يا جيشنا فخراً لامتنا وخطَّ اعلامك الاتحاد والنظمُ
ترقى المعالي وتركبها لنا وطنٌ للعزّ والمجد فيها تُرفع القببُ

والابيات التالية من قصيدة للدكتور نقولا فياض (٢)

يا بني عثمان إنا امةٌ اصبحت موضوع اعجاب الامم
سعيد العدلُ تاريخاً لكم طبع المجد به منذ القدم
في حمى جيش عزيز باسل واسع الذمة كشاف الغمم

وبعد ان يصف حماة الدستور الاحرار وافعالهم المجيدة وخوالج الامة يلتفت الى الغرب وعلاقته بتركيا فيقول : —

قل لاهل الغرب عنا حسبكم ان للاتراك بأساً وكرم
حرّروا الشرق وذي افعالهم جدّدت صوته بعد الحرم

وكأنهُ يرى ما كان يراه كثيرون من الاجانب سبب التفريق بين الشرقيين فيقول : —

ولن يطمع في تفريقنا كان للتفريق عهدٌ والصرمْ
غير دين الحبّ لا دين لنا نحن في البؤس سواء والنعمْ

ولعلّ الابيات التالية تمثل رُوات الشباب الوطنية عهدئذٍ وعصبيتهم الشرقية الثائرة . وهي من قصيدة تليت يوم افتتاح « المجوثان » (البرلمان العثماني) (٣) وتصف تألم الشرقيين من غطرسة الغربيين وشعورهم ان العهد الجديد سيضمن للشرقي حقوقه وكرامته . تبدأ بذكر

(١) راجع خصوصاً المشرق (بيروت) (٢) راجعها في مجلة الهلال ١٧ — ٩٧ (٣) للكاتبة سنة ١٩٠٨

كانت عليه مصر وسوريا وما كان يعانيه أبناء الضيم فيها وفي سائر الاقطار العربية من صلف الاجانب حتى يحمل الناظم شعوره الى قوله : —

أترتجي الذلّ من أيدٍ تقبّلها كأنها للهدى والدين معتصمُ
ونحن نحتر في القطرين سيدنا ونكرم الزعف الصلوك بينهمُ
دالاسرى في دم ابن الشرق فانقلبت أهنوه لا همٌ فيهم ولا شيمُ

ويتقدّم من هنا الى ذكر الانقلاب الدستوري وانبثاق النور الجديد من العرش العثماني وان هذا النور سيجلو ظلمات الهوان عن البلاد وسيربطهم معاً برابطة الوطنية الحقة والولاء لصاحب العرش . ثم يلتفت الى الغرب فيقول متحسراً

لطّى من النيـــل للدانوب متقدٌ الى العراق الى البحرين ملتهمُ
ان يكرمونا فان الشرق يكرمهم او يحقرونا فان الشرق ينتقمُ

ومما يلاحظ أن هذه الحماسة كانت شديدة الانقاد في شعراء المهاجر . كقول أحدهم [1]

حسب الغرب همّة الشرق يوماً ورماها بأنها وهميّـــه
كذب الغرب ان في الشرق قوماً بشفار الصمصام شقّوا الدجيّه

وليس ما قدّمناه الاّ نماذج قليلة من الشعر الوطني الذي أنشأه الامل الدستوري في الاوساط الادبية المسيحية ، فما قبلك بالاوساط الاسلامية وما نشأ فيها من حماسة شعرية وما أثارته من عواطف قومية والمسلمون عموماً أكثر ميلاً الى العثمانية وأشدّ نفوراً من السيطرة الاجنبية

ومن الخطأ الفادح أن يُساء الظن بتلك العواطف الوطنية وان يقال انها لم تكن الاّ من قبيل التزلف او المداهنة . قد تكون عواطف مفتعلة او سكران ولكنها كانت بوعثة تخرج من قلوب كان كثير منها طافحاً بالامل والاخلاص . واليك تزكية لذلك قول أستاذ عرف ببعد نظره وتروّيه في الامور . فقد لشر لهُ المقتطف خطبة اختارها من بين كثير من خطب ذلك العهد اذ رآها من أدلّ ما ألشيء في وصف تلك الحالة [2] . وقد جاء فيها وصف دقيق لحالة العثمانيين قبيل الدستور كقوله — « كنا منذ بضعة أسابيع والصدور خاشعة بما فيها . والنفوس واجمة من هول ما نرى من موقفاء والعقلاء النزهاء لا يدرون ماذا يصنعون ولا ماذا يقولون . وكأنما أطبقت عليهم السماء أو صدّت عليهم منافذ الرحمة . وبينما نحن في هذه الظلمة المدلهمة وفي حالٍ من اليأس والقنوط ما شهدنا مثلها ولا آباؤنا الاولون سطع علينا بغتة نور القانون الاساسي فأشرقت على آثاره شمس الحرية الشخصية والحرية القومية والحرية الفكرية الادبية »

(١) آداب القرن التاسع عشر شيخو ٢ — ١٧٣ (٢) المقتطف ٣٣ — ١٩٠٨ الاستاذ جبر ضومط

ثم يتقدَّم الى شرح معنى الدستور وتأثيره حتى يصل الى قوله — « ترون مما ذكرته في بيان حقيقة الدستور اني لا أرى ان أفراحنا به صبيانيَّات تافهة ، ولا احتفالاتنا ومظاهراتنا الخارجية تكرمةً لهُ وخدمته تهوُّسات ضارة . بل هي مهما بلغت مع القصد والحكمة قليلة في جنب أهميته ومقدار قيمته . وأيُّ قيمة أعظم من قيمة الحياة — حياة الفكر والقول والعمل المشروع للفرد ، وحياة العزة والقوة والتوازر والاستقلال والاستقبال للامة . فمن أراد الحياة فليقل لحي الدستور العثماني والقائمون به ومن أراد الموت موت الذلّ والصغار والاستعباد فلا رحمهُ الله . ولبئت هذا الشخص من بين جماعة العثمانيين الحرَّة »

وقد شعر الاستاذ كما شعر أكثر العقلاء يومئذٍ بطغيان ذلك التيار الوطني وخشي كما خشوا ان يقود الى الغرور والتهوّر او ان يستغلهُ أهل المآرب فناشد الناس قائلاً « دعوا التسرّع فان تسرّعكم لا يفيدنا الآن وان كنتم أخلص المخلصين وأغير أهل الغيرة الحقة على شرف العثمانية ومصلحة العثمانيين . انا في حاجة الى المخلصين أصحاب العلم والخبرة الذين قبل ان يقولوا يفكرون ويتروون وبعد ان يقولوا يعملون كما يقولون . مثل هؤلاء تطمئن اليهم نفوسنا ونسلم اليهم قيادتنا وتدبيرنا »

ومن ظواهر الاعتزاز بالوطنية في ذلك الحين تلك الغارات الشعواء التي شنها الشعراء على بعض الدول الاوربية لتعديها على بعض الممتلكات العثمانية وضمها نهائيًّا الى أملاكها . كما فعلت النمسا بالبوسنة والهرسك . واليونان بكريت . ثم ما فعلتهُ ايطاليا بطرابلس الغرب : فكان شعراء العربية على اختلاف محلهم ومنازعهم يداً واحدة على المعتدين . وكان شعرهم غالباً كالبحر الثائر يرمي صخور الشاطىء بالزبد الصاخب . كقول الشاعر اللبناني من قصيدة وطنية [1]

ألا من يبلغ النمسا كلاماً ... لسجّلهُ ونورثهُ البنينا
بان عهودها كانت سراباً ... وكان ودادها (بلفاً) مبينا
فلا تجد السنون الى التصافي ... سبيلاً ما تعاقبت السنونا
او النمسا تكفر عن ذنوب ... جنتها فاغتدت عاراً وهونا
أتحسب جارة الدانوب أنّا ... نذلُّ لمثلها ابداً جبينا

ولا ريب ان الشاعر كان في هذه الابيات يعبّر عن الشعور العام في المملكة العثمانية ، وقلَّما خطر يومئذٍ ببال ان « جارة الدانوب » ستصبح عن قريب حليفة الدولة العثمانية في الحرب العالمية . وفي حادثة كريت كان من تحمس العثمانيين عموماً ما حمل شاعراً لبنانيًّا آخر على نظم قصيدة بدوية النزعة ومنها [2]:—

(١) شبلي الملاط — راجع شيخو ١٧٧ (٢) لامين ناصر الدين راجعها في ديوانه صدى الخاطر تحت موضوع قادة كريت وكذلك في شيخو ١٩١ على ان في الروايتين بعض الاختلاف

أظنَّ بنو اليونان ان سيوفنا تنامُ ام الحنى علينا التأخرُ
ألم يذكروا بالامس ما كان بيننا على حين خفنا الموت والموت يزخرُ

لمثله يشير بذلك الى الحرب اليونانية العثمانية سنة ١٨٩٧

صدمناهم تحت العجاجة صدمةً كما راع اسراب الظباء غضنفر
وكان لنا معهم وقائع لم تزل احاديثها في الخافقين تُكرَّرُ

ومنها يخاطب اليونان : —

تحيَّنتمُ وقتاً توالت خطوبهُ لادراك امرٍ نيلهُ متعذّرُ
وخلتم توالي الظلم اورث شعبنا خمولاً واصبحنا على الهون نصبر
فهرناكمُ والملك قد كان ذاوياً فكيف وروض الملك فينان اخضرُ

أي فهرناكم أيام عبد الحميد والدولة في حال البؤس فكيف الآن وهي زاهية بعهدها الدستوري الجديد

فاضمُمْ إكريت بسهلٍ فدونهُ صدام الرزايا والهلاكُ المقرَّرُ[1]

ولشاعرنا اللبناني نفثات كهذه في حوادث البلقان وأدرنه وحرب طرابلس الغرب وغيرها من الوقائع السياسية التي كانت مثاراً للخواطر قبل الحرب الكبرى

ومثل ذلك نجده في الشعر العراقي . فالرصافي مثلاً ، وقد عرفنا أنهُ كان قبل الدستور من الاحرار أو الناقمين على سياسة الحكومة الحميدية ، اصبح بعده من المنالين في تعزيتها المتحسين في مقارعة أعدائها . وله قصائد رائعة يستنهض فيها المسلمين الى الجهاد ذوداً عن الوطن العثماني كقوله من قصيدة في الحرب الطرابلسية موضوعها « الى الحرب »[2]

ألا انهضْ وشمِّر أيها الشرق للحربِ وقبِّل غرار السيف واسلُ هوى الكتبِ
ولا تغترر ان قيلَ عصرُ تمدّنٍ فان الذي قالوه من اكذب الكذبِ
ألست تراهم بين مصرعِ ثورةٍ أباحوا حمى الاسلام بالقتل والنهبِ
وما يؤخذ الطليان بالذنب وحدهم ولكن جميع الغرب يؤخذ بالذنبِ

وله أشدُّ من ذلك في هذه الحرب وفي ادرنه والبلقان وسواها . والظاهر ان اقامته في الاستانة قد أثرت كلَّ التأثير في الناحية القومية الدينية من نفسه . فلما نشبت الحرب العالمية وخاضت غمارها تركيا الى جانب المانيا والنمسا اخذته الحمّية الدينية كما اخذت كثيرين سواهُ فنظم قصيدة موضوعها « الوطن والجهاد » يدعو فيها المسلمين الى قتال أعداء الوطن والدين (أي الحلفاء) ولكي يدرك القارىء ما كان يسود بعض الاوساط العربية في ذلك العهد (أي قبل

(١) والظاهر ان هذا البيت حذف من القصيدة في صدى الخاطر (٢) راجعها وراجع اخواتها باب الحربيات من ديوانه (بيروت ١٩٣١)

ان تبدّل الحال بظهور الدعوة العربية والثورة الحجازية ،) تنقل لهُ منها بعض أبياتها الاولى — قال : —

يا قومُ إن العدى قد هاجموا الوطنا فانهضوا الصوارم وأحموا الاهل والسُّنّا
واستنفروا نعدوّ الله كلَّ فتىً من نأى في أقاصي ارضكم ودنا
واستنهضوا من بني الاسلام قاطبةً من يسكن البدو والارياف والمدنا
واستفتلوا في سبيل الذود عن وطنٍ به تقيمون دين الله والسُّنّا

وبعد ان يجري شوطاً في هذا المضمار يلتفت الى مصر فيندّد بحكومتها (أو قل بسلطانها يومئذٍ ووزارته) لمجاراتهم الانكليز والانقياد لسياستهم . ويعود بعد ذلك الى الوطن والدعاء لهُ فيقول

لا زلتَ يا وطن الاسلام منتصراً بالجيش يزحف من ابنائك الاُمنا
إنّا نحبّك حبًّا لا انتهاء لهُ يستغرق الارض والاكوان والزمنا

ويخصُّ العراق بالقسم الاخير من القصيدة وما أشبع عن اقتراب العدوّ منه ، فيحضّ العراقيين على الاستبسال في صدّه —

إن العراق لعمرُ الله سبّةٌ تواثب الأُسْد فيها من هنا وهنا
هم الفوارس ان صالوا بملحمةٍ فلا يرون لهم غير المنون سُنى

ويجري مجرى الرصافي من شعراء العراق محمد حبيب العيدي ، وخيري الحنداوي ، ومحمد الحسين كاشف الغطاء ، وعبد العزيز الجواهري وسواهم ممّن نفخ فيهم الدستور روحاً جديدة حملهم على مناصرة الخلافة والهجّم على اعدائها في أوروبا ، وأضرم فيهم الغيرات الشرقية والدينية ، حتى قال أحدهم من قصيدة موضوعها « بعد حرب الطليان والبلقان » . (١)

اظهر الغرب ما أجنّ من الغدر — وأبدى كوامن الاضغانِ
وأحاطت بالمسلمين طوجُ البغي — من كل جانبٍ او مكانِ
أيها المسلمون هبّوا فليس الموتُ — الاّ حياتكم بهوانِ
قد دهاكم ويلٌ فاذا التمادي وأتاكم سيلٌ فاذا التواني
جاءكم جارف من الغرب تيّارٌ — يهدُّ البنا وأسّ المباني

ولحبيب العيدي قصيدة اسمها « ألواح الحقائق » القاها في المنتدى الادبي العربي في الاستانة بعد خطاب له في الحرب الطرابلسية وهي تقرب من خمسمائة بيت وقد ضمّنها أهمّ الحوادث التاريخية من عهد الرسالة الى زمن انشادها (٢) . ومما نقل الينا منها يصح ان نحكم انها تعبر

(١) محمد كاشف الغطاء . راجعها في كتاب الادب العصري في العراق لوثائل بطي الطبعة الاولى ج ٢ — ٨٢
(٢) راجعها في الادب العصري : لبطي ١ — ١٤٨

تعبيراً جليًّا عن هذه الهبّة المعنوية في نفوس الشرقيين وعن أمانيهم في ارجاع مجدهم الغابر ونفض ما كان قد لحق بهم من عار التأخر — كقوله —

كيف ترضى ياشرق ان يمشيَ الـــغرب اماماً وانت تمشي وراه
أفلم يأنُ انْ تجدد عهداً شهد الصُبح فضله والمساء
أنـام الهوان دون المنـايا انما الموت والهوانُ سواء

وهو يصل هذه النهضة الشرقية بمجد العرب الاقدمين ويحثها بذكر مفاخرهم التاريخية . ويدعو بني الشرق عموماً الى النهوض والجري في سبل العلى والتقدّم . ومثل ذلك خيري الهنداوي في قصيدته « أيها الشرق »[1] ، وقصيدته « فتاة سلانيك »[2] ومن هذه الاخيرة قولهُ متألماً —

أمُ البلاد أضاعك الاقوامُ فبكى مرابع مجدك الاسلامُ
يا أيها الشرق الذي قد عمّهُ الغرب من بعد الشروق ظلامُ
ما الغرب أوّل ظالم لك بالذي يأتيه بل ابناؤك الظلاّمُ
قد أهملوكَ وانت معقل عزّهم فاستهوتك بوطئها الاقـدامُ

ولقد يجوز أن تتهم بعض شعراء ذلك العهد بمداهنة الاتراك وان شعرهم لذلك لا يعكس لنا الشعور العربي الحقيقي . وهنا نكرّر قولنا انما انما نؤرخ العواطف العربية كما تظهر في فنات أدباء العرب الشعرية ، ومهما تكن الاغراض النفسية وراءها فذلك لا ينفي حقيقتها وانها ناشئة عن الحوادث متصلة بالشعور العام . والحقّ يقال ان ما اختبرناه بأنفسنا ، وما عرفناه من اختبار الآخرين يدفعنا الى تنزيه كثير من الشعراء بومئذٍ عن المداهنة المقصودة ، ويميل بنا الى ان نعزو عباراتهم الى ما أثارتهُ الاحداث السياسية من شتى النعرات في نفوسهم

في أوائل العهد الدستوري كان الشعر العربي في سوريا ومصر والعراق يجلّي الوانا من الوطنية غير واضحة الحدود . ولكن كما ان ألوان الطيف اذا مزجت معاً كوّنت شيئاً واحداً هو النور . كذلك تلك الالوان الساطعة من دينية او قومية مرجعها واحد هو الاحساس الحادّ بكرامة شرقية لم يعهدها الشرقيون او العرب منهم قبل ذلك العهد . وقد كان للنشوة الدستور يدٌ في تعميم ذلك الاحساس والباسه حيناً لباس الحماسة المهنية . وكانت تلك النشوة على اشدها في السنة الاولى من اعلان الدستور ايام كان الناس لا يزالون يطفرون فرحاً بزوال الاستبداد ، وينظرون الى المستقبل بعيون التفاؤل والاستبشار ، ثم اخذت بالتراخي تدريجيًّا

على أن النزعة الشرقية المصطبغة بالصبغة المهنية ظلت بارزة في الادب العربي الى اوائل الحرب العالمية . ومما يزكي ذلك ما نظمه الشعراء سنة ١٩١٣ في حادثة الطيارين التركين فتحي

(١) الادب المصري : ليطي ١ — ١٦٦ (٢) الادب المصري : ليطي ١ — ١٧١

وصادق وهما اول طيارين شرقيين ظهرا في سماء الشرق العربي . فلما وصلا سوريا ولبنان قابلهما الادب العربي بهبّة وطنية هزّت اعصاب الناس وأثارت نخوتهم الشرقية او قل اليمانية . كقول الشيخ مصطفى الغلاييني من قصيدة حماسية : — (١)

خيمًا فوق الرؤوس فأشرقت منا الوجوه وأزهرت انوارها
وفتحت يا فتحي القلوب بزمرة احيا مروات رجائنا تذكارها
ونزعت منا اليأسَ وهو بلية شنعاء عمّت قومنا اضرارها

ومثل هذه الحماسة الوطنية تتجلى في اقوال اكثر الشعراء لذلك العهد . ثم طار الطياران يقصدان مصر ، ولكن القدر المحتوم لم يمهلهما فسقطا قرب طبريا وكان لمصرعهما رنة اسف عمت جميع الاقطار العربية . وقد جعلهما الشعر العربي مثال الوطنية الشرقية المتحفزة لمباراة الغرب . وفي ذلك يقول الياس فياض — (٢)

فتحي أطلَّ من السلام مكذِّباً من قال إنا امة لن تقدما
من قال ان الشرق شعبٌ خاملٌ لا يستطيع مع الشعوب تقدُّما
اليوم قد جددتما لشبابه عهداً ينسّي عهده المتصرما
أعرقتما للعلم افضل مهجةٍ كانت تراق على المظالم قبلما
هذا هو الدرس المفيد وهذه عظة الزمان فهل لنا ان نعلما
من ليس يعرف ان يموت مكرماً هيهات يعرف ان يعيش مكرّما

ويتجلى شعور المصريين يومئذٍ في قول شاعرهم حافظ من قصيدة (٣)

اخت الكواكب ما رمـــاكِ وأنتِ راية النسور
ماذا دهاكِ وفوق ظهـــركِ مربض الاسد الهصور
ومنها مخاطباً فتحي: حاولت ان ترد المجرَّة والورودُ من السير
فوردتَ يافتحي الحمامَ وأنت منقطعُ النظير
وهويت من كبد السماء وهكذا تهوى البدور
ان كان اعياك الصعـــود بذلك الجسد الطهور
فاسبح بروحك وحدها واصعد الى الملك الكبير

وعلى هذا النمط نظم كثير من الشعر الوطني في بيروت ودمشق وبغداد والقاهرة وسواها من حواضر العالم العربي

واذا قيل كيف ذلك والعرب يومئذٍ كانوا قد بدأوا يستكرون سياسة الاتحاديين الاتراك

(١) الورد الصافي ٥ — ٢٤٣ (٢) الورد الصافي ٥ — ٣٠١
(٣) الورد الصافي ٥ — ٣٠٢ مطبعة المقطم ١٩١٦ ص ١٢٧ — ١٣٨

ويتشوفون الى حياة قومية وكيان مستقل بدليل ما نراه من جمعياتهم السياسية في مصر وغير مصر تلنا ان تلك الجمعيات لم تكن تملك من وسائل الدعاية ما يشيع في جميع الانحاء مبادئها او ما يجمع القلوب على نصرتها . فظل السواد الاعظم من ابناء العربية متعلقين بآمالهم الدستورية . لا يرون لهم من رابطة غير الخلافة العثمانية . ثم ان الحركة العربية الاستقلالية لم تكن قد نضجت نضجاً كافياً لتأصيل فكرة الانفصال عن الجامعة العثمانية . ويخيل الينا من دراسة عواطف الناس في ذلك الحين ان الزعماء الذين كانوا يعملون في سبيل الفكرة العربية لم يكونوا على بينة من هذا الامر . ولو راجعت الرسائل التي كان يتبادلها سراً امثال عبدالحميد الزهراوي ، ومختار بيهم ، ومحمد المحمصاني ، وسليم الجزائري ، ورشيد رضا ، واخوانهم من اعضاء المؤتمر العربي او الجمعية الاصلاحية ، لوجدت ما يزكي قولنا ان الاصلاح الذي كانوا ينشدونه لم يكن يراد به اولاً القضاء على الرابطة العثمانية والاستهداف لمطامع الاستعمار[1] . ولو عرفت تركيا يومئذ كيف تستغل شعور الناس لألفت من الكتلتين التركية والعربية جامعة عزيزة الجانب صادقة الوطنية . لكن السياسة العنصرية الحادة حالت دون ذلك ، فكانت من الاسباب المعجلة لنجاح الدعايات الاوربية في الشرق العربي ، ثم لاشتعال الثورة العربية في اثناء الحرب الكبرى

وسواء أصح استنادنا الى تلك الرسائل ام لم يصح فالواقع المشاهد ان الشعر العربي كان في اوائل العهد الدستوري أسرع الى الصفح عن مساوىء العهد الماضي والى تعزيز الرابطة العثمانية . ثم حدث الاحتكاك بين العنصرين التركي والعربي وأخذ البعض يلهجون بحقوق العرب في السلطنة وقد ظهر ذلك في الشعر العربي (كما سنرى) . على ان الشعر لم يقطع صلته بتلك الآمال الدستورية التي كان يشيد بذكرها . وقد ظل طيلة العهد الدستوري أميل الى التوفيق بين الاماني القومية والجامعة العثمانية ولو تأملنا لرأينا انه لم يصبح عدواً لهذه الجامعة الا بعد الثورة العربية والحرب العالمية

فليس من الغريب ان نراه من حين الى آخر يتأجج بالشعور العثماني إزاء بعض الحوادث الوطنية كالتي مر ذكرها من حوادث التعدي على الدولة في البلقان وطرابلس او من حادثة الطيران التي اضرمت القلوب في مختلف الاقطار حتى قال فيها شاهد عدل هو الدكتور هورد بلس رئيس جامعة بيروت الاميركية السابق وكان يوم الحادثة في مصر — «ان ما آنسته من حماسة اخواننا المصريين وشدة استعدادهم لاستقبال الطيارين واقامة المآدب والاحتفالات اللائقة بهما جعلني اتصور شيئاً مما حصل عن عظمة الاستقبال الذي جرى لهما في بيروت وعن الابتهاج الذي شمل الاهلين لمشاهدتهم الطيارين العثمانيين لاول مرة »[2]

(١) راجع هذه الرسائل في كتاب ثورة العرب (لاحد أعضاء الجمعيات العربية) (٢) مجلة الكلية